

سُنَّة التدافع كأفق أخلاقي للحوار الحضاري

الدكتور: بوزيرة عبد السلام

جامعة محمد بوضياف المسيلة

Resumé

ملخص

Parmi les lois qu'Allah a intégrées dans sa création, l'une est la loi de collision entre les êtres humains. C'est l'un des phénomènes naturels liés au mouvement des humains et à leurs interactions dans l'univers et la vie. Cette étude explique le concept de la loi de collision comme l'une des lois divines qui dépeint la nature de la relation entre les forces variées de la vie. L'étude a expliqué à la fois les dimensions positives et négatives de la loi, en commençant par l'intégration et la complémentarité pour aboutir à une collision et à un conflit. Il a également fait des horizons divers de domaines de collision qui incluent diverses préoccupations humaines qui façonnent les étapes de la civilisation humaine dans cette vie telles que culturelles, scientifiques, sociales, économiques et ainsi de suite...

من السنن التي أودعها الله عز وجل في خَلْقِهِ: سُنَّة التدافع بين البشر، وهي ظاهرة من الظواهر الكونية، التي تتصل بحركة الإنسان وتفاعلاته في الكون والحياة. وهذه الدراسة بيَّنت مفهوم التدافع كقانون من القوانين الربانية، يصور طبيعة العلاقة بين القوى المتنوعة في الحياة، وأوضحت أبعادها الإيجابية والسلبية، ابتداء من التصادم والتصارع، وانتهاء بالتكامل والتتميم. كما جعلت لمجالات التدافع آفاقاً متنوعة، لتشمل مختلف الاهتمامات البشرية التي تُشكِّل معالم الحضارة الإنسانية في هذه الحياة، كالجوانب الثقافية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها...

مفتتح

تعتبر فكرة حوار الحضارات من الأفكار والمفاهيم الأساسية التي احتلت الصدارة في قائمة اهتمامات العلماء والنخب الفكرية والسياسية، ومراكز البحوث المختلفة والمؤسسات الدولية مع نهاية القرن العشرين، في ظل اجتياحات العولمة كظاهرة فرضت نفسها وبقوة في السنوات الأخيرة ، حيث أصبحت مؤشرا على التغيرات التي يمكن أن تطرأ على صورة العالم والعلاقات بين الشعوب والحضارات والثقافات.

ولعل التحدي الأكبر الذي تواجهه الأمم والشعوب أمام المد العولمي الشامل والمتسارع والعنيف - في مقدمتها الأمة العربية الإسلامية- ذلك المتصل بالهوية الحضارية والثقافية . فالثقافة الغربية قد نجحت وبدرجة كبيرة - وفي الطور الحالي للعولمة - في فرض نفسها على بقية العالم باعتبارها الثقافة العالمية ، مدعومة بالطفرة العلمية والتكنولوجية المتسارعة وبثورة المعلومات والاتصالات. فأصبح الحديث اليوم أكثر من أي وقت مضى عن هيمنة العولمة الثقافية التي هي في الأصل هيمنة شمولية كاسحة، تطل ثقافات العالم دون استثناء، لكن بدرجات متفاوتة. فحقيقة العولمة الثقافية إنما هي تنميط واغتصاب وعدوان رمزي على سائر الثقافات ، يؤسس له الغرب المتمركز حول ذاته بغرض إلغاء وإقصاء لمختلف معالم التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف بين الأمم والشعوب، والتي هي سنة إلهية كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات.

وأمام هذه المخاطر المحدقة بالثقافة العربية الإسلامية في زمن العولمة، وأمام هذا الخطاب الثقافي الغربي المتصلب والمتوقع- ومن أجل دفع مفسد وآفات الفكر العولمي المسكون بهوس الاستعلاء والاجتثاث- جاءت الرؤية الإسلامية مؤسسة لحوار حضاري إنساني يركز على مبدأ جامع لكل صور التفاعل الإيجابي بين الأنساق الحضارية المتميزة ، إنه مبدأ "التدافع"

سُنَّة التدافع كأفق أخلاقي للحوار الحضاري.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

الذي يختزن من المبادئ والقيم الأخلاقية والروحية، ما يبطل به مقولات التصارع والتنازع المزعوم، ويتسع لمعاني التفاعل والتعاطي الإيجابي بين الحضارات ، ما يضمن به الحق في الاختلاف، ويكسر التعددية الثقافية والدينية ويؤمن بالمساواة. فما حقيقة مبدأ التدافع كأفق أخلاقي لبناء حضارة عالمية تنعم وتتساكن في ظلها كل الفئات البشرية على اختلاف أجناسها ولغاتها وعقائدها؟ كيف يحقق الخيار التدافعي مقصد العدول عن أي توجه عدواني يبغى المساس بالنوع الإنساني، ويكفل فرص التعايش والتآنس في الحال والمآل؟

إن من أكبر السنن ذكرا في كتاب الله -عز وجل-، ومن أكثرها عملا في الكون وضبطا له، وتأثيرا في حياة البشر: سنة التدافع، والتي هي في الأصل من الظواهر الكونية التي أودعها الله عز وجل في خلقه، والتي تتصل بحركة الإنسان وتفاعلاته في الحياة ، بحيث تسهم في توجيه التفاعل بين القوى المتعددة ، فيؤثر كل منها في الآخر إيجابا نحو التكامل والتميم، أو سلبا نحو التصادم والتصارع ، بصورة مستمرة ومتتابعة .

غير أن البحث في سُنَّة التدافع من حيث مفهومها ومجالاتها ومقاصدها، تجاذبته اتجاهات متناقضة في الرؤية. اتجاه تناول فكرة التدافع من منظور سلبي تصارعي يقوم على إزالة الآخر وإلغائه ومنازعته والهيمنة عليه. واتجاه آخر تناول فكرة التدافع من منظرو إيجابي يقوم على إبقاء الآخر والتآلف معه، وتحريكه من موقع العداوة والنزاع، إلى موقع التعاون والتفاعل معه والسعي إلى الاستفادة منه.

1- التدافع التناكري التعاركي.

يتأسس هذا الفهم للتدافع على أساس الصراع وحتمية الصدام والتناحر بين مكونات المجتمع الداخلي، ويتعداه إلى المجتمع الخارجي في رفض الحوار بين الحضارات وأتباع الأديان والمذاهب والطوائف والأجناس، وتغيب

سُنَّةُ التدافع كَأَفْقٍ أَخْلَاقِي لِلحوَارِ الحضاري.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

منهج الإيمان بمبدأ التعايش، واحترام التعددية، والاختلاف بين الشعوب والأجناس والأعراق والثقافات والعادات. وهذا الطرح يزكّيه ويلتف حول مضامينه وآلياته، اتجاه يحمل الفكر الصراع القائم على فعل الصرع والعداء والتعصب، فيتميز المشهد فيه بتلوّن النزاع بتلوّن الانتماءات الدينية والاتجاهات السياسية والمذهبية والطائفية، فيعم الخلاف محل الاختلاف، والتصادم محل التدافع والتنافس، والإقصاء محل الاستخلاف لعمارة المجتمعات بالتنمية المعرفية والفكرية والاقتصادية والثقافية، التي تستحق في ساحة المنافسات الحضارية العالمية. ويتجلى هذا النمط من التدافع عند المفكرين المروجين اليوم للصراع أو الصدام بين الحضارات والثقافات وعلى المستوى الفكري والمذهبي والسياسي، مثل الشيوعية التي قامت على مبدأ الصراع الطبقي الذي هو درجةً عليا في سلم الصراع. وينطبق هذا حتى على الرأسمالية التي قامت هي الأخرى، على مبدأ الصراع ضد العوائق والموانع والحواجز التي تمنع الرأسمال من الانطلاق من القيود، حتى وإن أدى تطبيق هذا المذهب والعمل به إلى الإضرار بمصالح الآخر المختلف، فمن أجل الوصول إلى الرفاهية والهيمنة، لاشيء يمنع من استغلال الآخر والهيمنة على مقدراته، وهو الأمر الذي أدى، ولا يزال يؤدي، إلى زعزعة استقرار المجتمعات الحديثة، بما فيها المجتمعات الرأسمالية ذاتها. فمن الحقائق التي تنطوي عليها الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، وهي أنّ فكرة الصراع أصلٌ أصيلٌ في هذه الحضارة، التي هي وريثة الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتين، وهو أسُّ ثابت من أسس الفكر الأوروبي في أطواره التاريخية المتعاقبة، حيث تجلت معالمه في الكثير من الحروب الأهلية والصراعات الداخلية، ثم بدأت أوروبا في نقل هذا الصراع إلى الشرق من خلال حركة الاستعمار، أي إعادة استنابات الصراع عالميا بأنماط وأساليب مختلفة.

فتاريخ الغرب يؤكد على أن التدافع التصاري هو النموذج المهيمن على الوعي الغربي، أي أن الأنا الغربية لا تتعرف إلى ذاتها إلا من خلال الآخر الذي تُشكله بالصورة التي تجعله صالحاً لأداء الوظيفة التي تريدها. فالآخر في الوعي الغربي دائماً مصدر خطر، والحديث عنه كان تارة باعتباره "الخطر الأحمر" وتارة أخرى باعتباره "الخطر الأصفر" وتارة ثالثة باعتباره "الخطر الأخطر" أي الإسلام.⁽¹⁾

فليس من العجب القول بأن تشبّع الغرب بعقيدة الهيمنة والتصارع والتناحر مع الآخر المغاير، إنما مرد الأمر فيه إلى رسوخ جدلية المركز والهامش في صميم الوعي الأوروبي. فمفهوم التمركز تصور يقوم على التمايز والتعالي وتقديس الذات باعتبارها مركز الإشعاع، وهو ما ينطبق على المركزية الغربية التي تعالت نبرتها بتزايد هيمنة القيم الحضارية الغربية (الديمقراطية، الليبرالية الاقتصادية..)، وانتشار نمط الحياة الأمريكية بصفة خاصة، فاعتبر المركز صانع الحضارة ومبدعها ومسيرها، وأما الهامش فيرمز إلى الاستهلاك والركود والتبعية، وكل ما زادت هيمنة المركز بمختلف تجلياتها اختزل دور الهامش وقزمت فاعليته، وأملت عليه الشروط وفرضت عليه القيود التي توافق الإيديولوجية الغربية، التي حددت تصوراتها الواضحة عن العالم والإنسان.⁽²⁾ وبالمقابل فإن الهامش أو الأطراف ((هي المناطق التي اندمجت في النظام العالمي دون أن تتبلور إلى مراكز، فهي إذن تلك المناطق التي تتحكم القوى الخارجية في تحديد مدى واتجاه التراكم المحلي فيها.))⁽³⁾

كما أن مصطلح الغرب إنما هو تأسيس لمفهوم التمركز، حيث سعت الخطابات الغربية إلى وضعه في إطار من الفوقية، وإبرازه على أنه نموذج مكتمل في مقابل الشرق الدوني الذي يجب أن يبحث عن اكتماله في هذا الغرب، فالمصطلح قصد إلى إقصاء الآخر المغاير وتحويله إلى مكون هامشي، حيث تتحدد أهميته ومكانته أو تعدل حسب مدى مطابقتها لمنظور الأنا

سُنَّةُ التدافع كَأَفْقٍ أَخْلَاقِي لِلحوَارِ الحضاري.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

وتصوراتها. فأهم مقررات المركزية الغربية كما يرى عبد الله إبراهيم ((هو إقرارها بوجود تاريخ خاص مطلق للغرب، أدى إلى ظهور حضارة غنية ومتنوعة، وأن ما وصل إليه الغرب من تقدم وازدهار لن يكون عند باقي الأمم إلا باتباع خطواته، والأخذ بالأسباب ذاتها التي أخذ بها الغربيون. وليس أمام تلك المجتمعات إلا التخلص من خصوصياتها الثقافية، لأن تلك الخصائص هي المسؤولة عن تخلفها، وهي المعيقة لتطورها.))⁽⁴⁾

وما يؤكد حقيقة التمحور حول الذات، والنزوع الجامح في صميم الذهنية الإقصائية الغربية، نظرية صدام الحضارات التي بشر بها "صمويل هنتغتون Samuel Huntington" كونها من أخطر النظريات الصدامية التي أنتجها الفكر الغربي، لما تحمله من أفكار عنصرية تحت المجتمعات الغربية على مجابهة الحضارات الأخرى التي تختلف عنها وعلى رأسها الحضارة العربية الإسلامية حيث يقول((إن المعتقدات الغربية العالمية، تفترض أن شعوب العالم بأسره لا بد أن تعتنق القيم والمؤسسات والثقافة الغربية، لأنها تجسد أوفى فكر، ولأنها أكثر استنارة وليبرالية وعقلانية وحدائية وتحضرا.))⁽⁵⁾ فالفروقات الهوياتية بين الحضارات هي التي تؤدي إلى الصدام ، كالتمايز في التاريخ و اللغة و خاصة الدين. فمشكل الغرب ليس مع الأصولية الإسلامية- وهو ما يعمل اليوم الغرب على تسويقه إعلاميا- بل مع الإسلام الذي هو حضارة مختلفة تعتقد شعوبه بتفوق ثقافتهم ويملكهم هاجس انحطاط قوتهم. ومادام الإسلام هو المشكل فإنه يتحول إلى مصدر للقلق والخوف عندما يكتسب قوة استراتيجية ، مما يجعل توتر الغرب ينبع أساسا من القوى الإسلامية الآسيوية المتنامية باستمرار، عسكريا واقتصاديا كإندونيسيا والباكستان مثلا ، ومن الدول العربية النفطية المتحكمة في شريان الاقتصاد العالمي، مما سيمكنهما من لعب أدوار هامة على حساب الهيمنة الغربية.

والحديث عن نظرية صدام الحضارات يجرنا حتما إلى نظرية أخرى آزرت الأولى وكان توجههما واحدا على الرغم من اختلاف زوايا النظر والحيثيات ، حيث يمكن اعتبارهما أساسا نظريا لنظرة الغرب إلى الإسلام موضوع المقاربة، إنها نظرية "نهاية التاريخ" التي طرحها " فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama " سنة 1989 في كتابه " نهاية التاريخ وخاتم البشر" والتي ترى أن الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية الأمريكية تشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري، وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ يقول ((إن الحضارة الأوروبية بفكرها ومؤسساتها تمثل نهاية العالم وإن حضارتها تفوق كل الحضارات، وأن المسلمين أعداء التقدم ويقومون بحملة ضد الحضارة الأوروبية))⁽⁶⁾

هذه القرائن وغيرها تؤكد يقينا بأن الغرب الأوروبي قد رمى بكل ثقله التاريخي ، من أجل فرض واقع الهيمنة وضمّان التفوق على امتداد التاريخ القادم، بحيث يبقى الغرب وإلى الأبد هو المركز وغيره الأطراف، والشاهد على هذا هو الواقع المفروض عبر تغلغل الحضارة الغربية في العالم على مستوى أكثر عمقا، يعني مستوى القيم الحضارية والثقافية بغية فرض شروط ثقافية وحضارية ذات صبغة عالمية، فالتفكيك الثقافي المحكم الذي يمارسه الغرب باسم الحداثة يكون قد قطع أشواطا في مهمة تدمير الكيانات الحضارية والثقافية، وتعميم النموذج الغربي بحيث وجدت بعض الشعوب نفسها أمام حقيقة مرة هي أنها لم تعد قادرة على تقليد النموذج الثقافي الغربي الوافد، وفي الوقت ذاته لم تعد قادرة على استعادة الأواصر والأبنية الموروثة التي تشكل عماد أصالتها، فهي بذلك تعيش في غربة عن ذاتها وعن محيطها. يقول عبد الوهاب المسيري ((إن الثقافة الغربية تريد من العالم أجمع أن يعتمد المعايير المادية النفعية الغربية كأساس لتطوره، وكقيمة اجتماعية وأخلاقية وبهذا فإن ما تبقى يجب أن يسقط، وما تبقى ها هنا

سُنَّةُ التَّدَافِعِ كَأَفْقِ أَخْلَاقِ لِلْحَوَارِ الْحَضَارِيِّ.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

ليست خصوصية قومية بل مفهوم الخصوصية نفسه، وليس تاريخا بعينه، بل فكرة التاريخ، وليس هوية بعينها وإنما كل الهويات، وليس منظومة قيمية، بل فكرة القيمة، وليس نوعا بشريا، وإنما فكرة الإنسان المطلق نفسه.))⁽⁷⁾ فمنطروا المركزية الغربية اقتنعوا بأن الحلقة المفقودة في سلسلة الهيمنة هي الأمة الإسلامية، وهم اليوم في سعي حثيث من أجل تدجينها، وضمها إلى السرب الذي يغرد في فلكها، وأن تصطف في الطابور كرها أم طوعا، ترغيبا أم ترهيبا، وبالتالي محاولة فرض رؤية خاصة ومعايير ثقافية وبقيم مخصوصة يخضع لها الجميع وهي التي عبر عنها طه عبد الرحمان باسم التخريب والتنميط الثقافي((يتجلى هذا التخريب في مختلف أعمال الإنسان الكوني في طوره الأوربي والأمريكي الرامية إلى مسخ قيم الثقافة الإسلامية بكل الوسائل المتاحة لديه، نذكر من هذه الأعمال التخريبية : التشكيك في الثوابت العقدية للدين الإسلامي، والتطاول على مقدساته بدعوى تحري النزاهة والموضوعية، وكذا الطعن في الحقائق التاريخية التي تعلق بالحضارة الإسلامية بدعوى التزام مقتضيات النقد العلمي.))⁽⁸⁾

غير أن الرؤية الإسلامية رفضت مقولة التدافع السلبي وفق مقولة الصراع المسوقة عالميا، كسبيل لحل التناقضات والخلافات التي تحدث بين فرقاء التعددية، وذلك لأن غاية الصراع ومآله نفي وإلغاء الآخر، وبالتالي نفي وإلغاء للاختلاف والتمايز كسُنَّة كونية. وفي ذلك إلغاء لأصل مقصدية التدافع والجدال والتي هي أحسن، لقول المولى تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. فصلت:34. والتدافع الذي يأمر به القرآن لا يلغي المختلف أو الآخر وإنما يسعى إلى ترشيده من موقع الخطأ إلى صوابية التوجه، والسداد في تحقيق النجاح الدنيوي والأخروي. فالرؤية الإسلامية تنكر لنزعة المركزية المغرضة التي تريد أن يكون العالم نمطا وقالبا واحدا، منكرا على الآخرين

سُنَّةُ التَّدَافِعِ كَأَفْقِ أَخْلَاقِي لِلْحَوَارِ الْحَضَارِيِّ.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام
حق التمايز والاختلاف ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِمَّا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المائدة: 48.

2- التَّدَافِعُ التَّعَارُفِيُّ التَّشَارِكِيُّ.

يقول عز وجل ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: 251. من منطوق الآية نقول بأن التَّدَافِعَ التَّعَارُفِيَّ هو الذي يروم دفع الآخر للعدول عن مواقفه المتعصبة والعدوانية عن الآخر المتمايز عنه، وإشراكه في تحقيق المصلحة والمنفعة العامة للنوع الإنساني على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم، فيربح جميع الأطراف المتدافعة، ويساهم الجميع في صنع مستقبل الجميع، لأن الرابطة الإنسانية الوحيدة حقًا - كما يقول المفكر الفرنسي روجيه غارودي - لجماعة إنسانية حقًا، تتمثل في اشتراك هذه الجماعة في مشروع عام، وتعاونها على تحقيق هذا المشروع بوصفه مشروعًا مشتركًا للإنسانية كلها كوحدة كلية، وهكذا يساهم كل شعب من خلال ثقافته الأصلية في أنسنة الإنسان، ونموه وتقدمه الحقيقي في الإنسانية.⁽⁹⁾

فالكثير من النصوص القرآنية تؤسس لرؤية في الصلة مع الآخر، وهذه الرؤية مكتملة ومتساوقة مع الفكرة الأولى التي تتحدث عن "التعارف". فصلة المسلم مع الآخر محكومة من جهة بإطار التعارف وغايته وأخلاقياته وشرائطه، ومن جهة ثانية تخضع لسنة التدافع، ومسوغها أن التدافع التعارفي لا يكون إلا بكلام طيب بين متكلمين بعضهم أكرم من بعض، مؤسسًا على اعتبارات أخلاقية أصلها المعروف أي الخير، ومقامها الكلمة الطيبة. لقوله عز وجل ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ سورة النحل: الآية 125.

سُنَّة التدافع كأفق أخلاقي للحوار الحضاري.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

إذن هناك أخلاقية صريحة بين المتواصلين أو المتحاورين سواء أكانوا أفراداً أم جماعات ، داخل الفضاء الثقافي الواحد، أو بين فضاءات ثقافية متميزة ، تنفتح بموجها أفاق رحبة بينهما يطبعها الاحترام والتسامح والتعاون والتنافس، الذي يقر بالتفاوت الأخلاقي بين المتعارفين، والذي من شأنه أن يوسع مدارك معارفهما، ويجنبهما مختلف مظاهر التصارع والتدافع التناحري⁽¹⁰⁾ يترتب على هذا أن السبيل إلى الخروج من آفات الكونية الثقافية لن يتأتى إلا إذا تمكنت الأمة الإسلامية من الإجابة على أسئلة زمانها، بناء على الخصائص الاختلافية يقول ((ولهذا استقر عزمنا على أن نستغني عن ذكر هذه التفاصيل بإبراز الروح الخاصة التي تميز الجواب الإسلامي، والتي تؤمن للأمة المسلمة حق الاختلاف في فكرها عن الأمم الأخرى، ولو كانت أشد منها بأساً، كما تدفع عنها ذرائع الذين يرومون حرمانها من هذا الحق.))⁽¹¹⁾ .

فنمط السعي المبهوس باتجاه الهيمنة والسيطرة لدى المركزية الغربية، يقطع ويشوش على إمكانات التعاون و التخادم بين الحضارات، ويسلك به مسلك التعاند والتهادم، وهو ما لم تعد البشرية اليوم في مقدورها أن تدفع ثمنه، نظراً لما تعاقب عليها من المآسي والأحزان، فمن مصلحة كل الحضارات والثقافات في العالم نبذ العنف في علاقاتها، والخروج من حالة الفوضى إلى حالة الانتظام والالتزان، والذي يمكن أن نصطلح عليه باسم التدافع التعارفي. فلئن سلمت هذه الحضارات بتفوقه المادي وبقدرته على إحكام طوقه التقني والتكنولوجي حول الأرض، فإنها لا تسلم له بحقه المزعوم في الريادة ولا في إملاء القيم فكانت النتيجة الرفض والصد ، وعلى رأس هذه الحضارات العصية على الانصياع الحضارة الإسلامية، وهذا لاعتبارات عدة أهمها: عالمية الإسلام من حيث الهدف والغاية والوسيلة، وهذا ما أكدّه الخطاب القرآني.

سُنَّةُ التَّدَافِعِ كَأَفْقِ أَخْلَاقِ لِلْحَوَارِ الْحَضَارِيِّ.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

كما أن الحضارة الإسلامية قامت على القاسم المشترك بين حضارات العالم، فقبلت الآخر وتفاعلت معه أخذا وعطاء، بل أن حضارة الإسلام تعاملت مع الاختلاف بين البشر باعتباره سنة من سنن الكون. لذلك دعا الخطاب القرآني إلى اعتبار الاختلاف في الجنس والدين واللغة من عوامل التعارف بين البشر لقوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات، الآية 13.

فالتعارف في هذا المقام إنما المقصود به رجوع الكثرة من الأفراد على تعددهم القبلي والعرقي إلى وحدة متعاونة على ما يكون به قوام الحياة بتعدد أوجهها، وما يكون به تحقيق الأغراض والحوائج، توجهها في ذلك توجهها سابقيا للاقتراب من الله تعالى بتحقيق أوامره، وتلك هي التقوى التي دلت بها الآية في مقام الهدف الذي من أجله يكون التعارف.⁽¹²⁾ فالأمة الإسلامية في تواصلها مع غيرها، مبدؤها التعارف أي تواصلها من أجل المعروف، وتعاملها بالمعروف، بدليل ربطها التعارف بالكرامة والتقوى. فالعمل التعارفي يكون بين الأشخاص المختلفين كما يكون بين الأمم والشعوب المختلفة على قيم الخير والمحبة، يقول طه عبد الرحمان ((حقيقة التعارف هو أن التعاون على المعروف وترك التعاون على المنكر.))⁽¹³⁾

إن العمل التعارفي الذي يدعو إليه الخطاب القرآني يفضي حتما إلى التخلق، كونه صلة صريحة بين الأنا والآخر، أي كونه تصرف وفق القيم داخل الجماعة، ويقع الحكم عليه بالخير أو الشر بحسب آثاره على أفرادها، فالخلق إذن ذو طبيعة تعاملية وأفضل تعامل يترك فيه الإنسان هو التعامل في مجال معروف "الدين المعاملة". فالعمل التعارفي - هو التعامل مختلف الأشخاص والأمم علة مقتضى المعروف- هو في الأصل في تخلق المسلم، فتخلق المسلم تخلق تعارفي بحق. فالعمل التعارفي بهذا هو شكل من إشكال

سُنَّة التدافع كأفق أخلاقي للحوار الحضاري.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

تخليق الحياة المشتركة بإعطائها صبغة إنسانية كونية لعلها بذلك قد تقلل من وطأة العنف والمكر والخبث، هذا العمل عبر عنه عبد الوهاب المسيري " بالتآنس" يقول: ((فلسفة التآنس إذن هي إمكانية التفكير في الشروط الموضوعية والروحية للعيش معا في كنف السعادة، أساسه الأنس والمحبة، وقد تظهر هذه الفلسفة في التصورات التي تحدد حول مفهوم الاتفاق كما نجده عند جون راولس أو التواصل كما نجده عند يورغن هابرماس، والتآزر كما نجده عند ريتشارد رورتي، والتحافز كما نجده عند إدوارد تايلور أو الضيافة عند جاك دريدا، كل هذه المفاهيم هي تصورات تعالج وضعية الإنسان المزرية في عالم تسيطر عليه معقولية الهيمنة.))⁽¹⁴⁾.

وإذا سلمنا بأن العمل التعارفي هو ذلك الفعل الذي لا يشترك فيه أشخاص مختلفون فحسب، بل تشترك فيه أُمم مختلفة بكاملها، وكلما زادت قوة العمل وزاد عدد الأمم المشتركة زاد حضنها من الأخلاق، وجب علينا التسليم بأنه لا يستقيم حال العمل التعارفي، إلا إذا قام على مبدأ الحوار كأساس حضاري لدفع مفاصد الهيمنة، وسد منافذ الصراع الحضاري، وهو الذي اصطلح عليه باسم "حوار الحضارات". لكن ليس ذلك الحوار الذي يرفع كشعار غير بريء مفعم بالغموض والالتباس، والمرتبط بالمصالح، والذي يشعر الغير بالدونية، وإنما الحوار البناء المسؤول والعادل، الذي يشعر فيه الكل بأنه قابل للأخذ والعطاء بعيدا عن الاستعلاء والتعصب والتسلط ووقاحة الإنكار، وعندها تتلاقح الحضارات، وتتفاعل الثقافات. يقول طه عبد الرحمان: ((فلا سبيل إلى وضع الفرقة إلا باجتهاد المتحاورين في تحصيل الاستقامة في سلوكهما، بالقدر الذي يتيح لهما أن يتفاعلا فيما بينها تفاعلا مثمرا غير مجذب، ولا يخفى أن هذه الاستقامة توجب أن يجعل الواحد منهما اعتبار الغير فوق اعتبار الذات.))⁽¹⁵⁾.

سُنَّةُ التدافع كَأَفْق أخلاقِي للحوار الحضاري.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

وإذا كانت الأخلاق هي ثمرة العمل التعارفي، ولا شيء يشعر الإنسان بأنه أقرب إلى معرفة الخاصية التي تميزه من اشتراكه مع غيره في فعل يرفع مكانتهما الإنسانية، فإن هذا حتما مآله التكامل بين حضارات الشعوب وثقافتها كما يقول: ((فإذا كانت كل ثقافة تحمل رؤية لحياة الإنسان تختص بها فإن الحاجة تدعو إلى انضمام هذه الرؤية الخاصة إلى غيرها حتى تتولد من الرؤيتين معا رؤية أوسع، بحيث كلما تعددت هذه الرؤى زاد اتساع الرؤية المتولدة منها. فتكون حقيقة الثقافة العالمية هي أنها الثقافة التي تحمل الثقافة الأوسع)).⁽¹⁶⁾

وفقا لهذه الحتمية التي يجب أن يؤول إليها العمل التعارفي يحصل التنوع الثقافي والحضاري أو بالأحرى أشكال التنوع الحاصلة بين المجموعات البشرية في التاريخ؛ بحكم تنوع شروط كينونتها. إلا أن هذا التنوع لا يعني تنافي الثقافات وتنافرها، بل تكامل الثقافات وتعارفها في شكل تفاعلي يقول طه عبد الرحمان: ((فكما أننا نأخذ من ثقافة الآخرين ونحتاج إلى البقاء على الأخذ منهم، لا من جهة الإطلاع على أسباب المعرفة فحسب؛ بل أيضا من جهة تقوية العمل التعارفي أي يرجع إليه كمال التخلق، فكذاك ينبغي أن نعطيهم من ثقافتنا ما لا يقدرون على تحصيله بأنفسهم، بل أن نحوجهم إلى هذا التحصيل متى واصلنا تملك أسبابهم وتوصلنا بها في الكشف عن جوانب من ثقافتنا تفيدهم في دفع الآفات التي دخلت اختباراتهم الحضارية)).⁽¹⁷⁾

فالرؤية الحضارة الإسلامية تدعو إلى حوار ثقافي حضاري على أساس ندية الثقافة والحضارة و الإنسان، بعيدا عن الازدراية والانتقائية والاختزالية النابعة من روح الاستعلاء والهيمنة، وبذلك يمكن البحث معا عن قاعدة الاتفاق والبناء على أساسها ، والعمل على تقليل أسباب الخلاف. وبهذا فالمسلمون اليوم عليهم واجب تثمين ما يمتلكونه من مقدرات حضارية من شأنها أن تغدق على البشرية كل أنواع النعم، مع تذكير أصحابها بأن زوال

سُنَّةُ التدافع كَأَفْقٍ أَخْلَاقِي لِلْحَوَارِ الْحَضَارِيِّ.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

النِّعم مسدُّه حلول النِّقم. إن دور المسلمين ومهمتهم مزدوجة، فعلاوة على ضرورة صدهم للغرب المهيمن، عليهم إيقاظ الفكر الكوني بما فيه الفكر الغربي وتذكيره بحاجة الحداثة إلى عبادة، وبحاجة الاقتصاد والسياسة العلاقات الإنسانية برمتها إلى تسديد أخلاقي يدفع ما ظهر وما يظهر من آفات ومفاسد أخلاقية، فتسمو بذلك حياة الخلق من طور الفئات البشرية إلى طور الإنسانية، ومن ضيق الكونية وأسر العولمة إلى سعة ورحابة العالمية.⁽¹⁸⁾

خاتمة:

في ضوء ما تقدم يستوجب القول بأن الرؤية إسلامية واضحة في التفاعل والتواصل مع الآخر، سواء في أوقات السلم أم في أوقات الحرب. إن مفهوم "التدافع الحضاري" الإسلامي، يؤسس لمنهج أخلاقي منضبط في منع وصول نزاعات الناس وتفاعلاتهم إلى لحظات ومراحل الفساد والهدم، الذي تضع بموجبه مصالح الناس وتسفك الدماء، ويستشري الظلم والقتل في حياتهم. فالتدافع الحضاري الإسلامي بوصفه بديلاً لفلسفة التصادم الحضاري ومنطق الصراع الحضاري، يبين لنا أن العلاقات والصلات مع الآخر ينبغي أن تُحكم بسنن التدافع الربانية، وهدف هذه السنن هو إخراج الناس عن توجيه طاقاتهم للصراع والصدام غير المشروع، الذي لا تحكمه قيم ولا أخلاق. فالدفع أو التدافع في الإسلام ينبغي أن يحكم بضابطين على الأقل، أولاً: منع الفساد والهدم، وثانياً: بالإحسان وبألتي هي أحسن. فالغاية هي منع الفساد، والمنهج هو بألتي هي أحسن. وفي هذين الضابطين تكمن حقيقة نظرية التدافع الحضاري في الإسلام، وتتجسد كل القيم الأخلاقية التي تحكم صلة المسلم بالآخر. والمسلم في صلته مع الآخر في لحظات السلام والسلم، عليه أن يتدافع معه من أجل منع الفساد والهدم، وبالإحسان. وكذلك في لحظات الحرب، والاقتتال، والصدام، والنزاع عليه أن يمارس التدافع المنضبط من أجل وقف الفساد والهدم ويمارسه بألتي هي

سُنَّة التدافع كأفق أخلاقي للحوار الحضاري.....الدكتور: بوزيرة عبد السلام

أحسن. وخير دليل نقدمه في تدافع المسلمين مع الآخر في أوقات الحرب والنزاع، هو أخلاقيات الحرب، وحقوق الأسير، وحرمة دماء الأبرياء، وضرورة المحافظة على الأرض والعمران والشجر وغيرها أثناء التصادم والتقاتل، فاستناداً إلى نظرية صدام الحضارات وصراعها يصبح القانون الغالب هو الإلغاء والإفناء لكل شيء، من أجل النصر وقهر الطرف الآخر، ولكن بناء على نظرية التدافع الإسلامي، فإن كل حركة أو سكونة أو قرار أو موقف إزاء الآخر ينبغي أن يضبط بالشرع، ويُحكم بأخلاقيات وضوابط تحافظ على حقوق الإنسان وكرامته، حتى في حالات النزاع والصدام العنيف.

- 1- محمد عابد الجابري، صراع الحضارات أم توازن المصالح :
<https://nawaat.org/portail/2005/02/21/clash-or-dialogue-civilizations>
- 2 - عبد الله إبراهيم ، المطابقة والاختلاف ، بحث في نقد المركزية الثقافية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2004 ، ص:22.
- 3- عز الدين المناصرة : النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 2005 ، ص:41.
- 4- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، ص43.
- 5- صمويل هنتغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة، مالك عبيد أبو شهبوة ومحمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 1999، ص 501.
- 6- فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1993، ص12.
- 7- عبد الوهاب المسيري، صراع حضارات أم حوار ثقافات، منشورات منظمة تضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية، القاهرة، مصر، 1997 ، ص100.
- 8- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص 83.
- 9- روجيه جارودي، كيف نصنع المستقبل، ترجمة، د.منى طلبية، د.أنور مغيث، دار الشروق- القاهرة، مصر، ط3، 2002 ، ص 182.
- 10 - لقد وجدت الفكرة التي يروج لها منظرو الغرب اليوم، والتي مفادها أن الليبرالية الحضارية لا تتحقق إلا في ظل الصراع، والمحافظة على البقاء لن يتأتى إلا بالإقصاء والإلغاء والاحتواء. من يتلقفها من المثقفين العرب منهم منير شفيق الذي يقول((لكل من الحضارتين طريقا مختلفا وسياقا خاصا، فهما لا يلتقيان، إلا لتتبارزا وتتعارضا وتنفي إحداهما الأخرى.)) منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة ، دار الناشر للطباعة والنشر-بيروت، لبنان، ط1، 1991 ، ص 73.
- 11- طه عبد الرحمان، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري ، ص.173.

12- التعارف المقصود بغرض وجوب النهي عن التفاخر واللمز والتنازع، مما يقوم قرينة على أن التعارف المأمور به هو المقتضي متضادين يحيلهم التعارف إلى وحدة ووثام وتعاون. يقول محمد الطاهر بن عاشور((كان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاماً محكماً، يربط أواصرهم فيتعارفوا دون مشقة، ولا تعذر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار، يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل، ثم ببث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكبر، وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم.)) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، الدار التونسية للنشر، ط1، 1984، ص262.

13- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص21.

14- عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، ص266.

15- طه عبد الرحمان، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ص44.

16- طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص93.

17- المصدر نفسه، ص88.

18- إذا كانت العولمة تعني وحدة الجنس البشري، باعتبار أن العالم وحدة واحدة، ووسيلتها الصدام والصراع بين الحضارات، مشروعها الغزو الثقافي، وغايتها اختراق الخصوصية الثقافية القومية والوطنية. فالعالمية ضد العولمة، الأول انفتاح على العالم، وإقرار بتباين الثقافات والحضارات، بل هي إثراء لهذه الثقافات، وتكريس لتلاحقها حضارياً وعلمياً وتقنياً. وتقوم العالمية على المساواة والتّدية بين مختلف الثقافات، إن العالمية تخاطب أعرق مشاعر الإنسان عموماً، وأقوى مشاكله، وأخص هوائفه، والعالمي في الأدب والفن هو الذي يتصيد ما بين البشرية جمعاء، كالعواطف المشتركة، وما في وجدانها من حقوق موحدة وقيم سامية ومثل عليا على الرغم من اختلاف الأجناس وتباين الأزمان والأوطان، ويعد الحياة كرامة والحرية حقاً، والعدالة الاجتماعية حتماً والفضيلة جوهرراً. لقوله تعالى: قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) سورة الأنبياء، الآية 107. وقوله عز وجل (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سورة سبأ، الآية28.